

الحرب على الفوضى الخلاقة: النزعة المركزية في الثورات العربية المَعُولمة (دراسة في صناعة المستقبل)

فتحي العفيفي (*)

متخصص في الفكر الاستراتيجي، جامعة الزقازيق.

مقدمة

في المنطقة العربية، ثمة حالة غير مسبوقة من الفوضى العارمة التي تجتاح كلّ القديم وما رث من قناعات لعقود طويلة، تختلط فيها المفاهيم والممارسة، ويثور الجدل والفعل بين ما هو هدام وما هو خلاق، بحيث إنّ كلّ الفصائل والطوائف قد اندفعت إلى صدارة المشهد، أملاً في الخلاص، ورغبة في استغلال هذه السانحة التاريخية التي ربما لا يجود الزمان بمثلها، على الأقل في المنظور القريب. ما يحدث إذاً هو نوع من الإفلاس الواسع النطاق لكلّ السياسات التي حكمت المنطقة، عرفاً وقانوناً، لفترة مضت تزيد على الخمسين عاماً، وانشقاق الأرض عن بذر جديد ما يزال يعاني مخاضاً صعباً ومتعثراً ومحفوفاً بالمخاطر، وإن كانت اللحظة التاريخية الفارقة لتسجل تصالح الخصوصي مع العالمي. فالعرب لأول مرة يكون لديهم زمام المبادرة بحيث بدا فعلهم عالمياً، ومؤثرين في الوجدان الإنساني، ولا يكتفون فقط بالتلقي والاستجابة للضغوطات التي تنهال عليهم من كلّ اتجاه. إن حركة العولمة الراهنة التي قوامها الحريات والديمقراطيات، وإسقاط أنظمة الاستبداد والفساد والدكتاتورية، لهي فعل من أفعال العولمة التي يبدو فيها الحدث ذا نزعة مركزية يتبدى ظاهره وباطنه في محاولات صوغ دينامياته على غير صعيد، ومخاض عنيف لحركة التثوير العربية.

الفوضى الخلاقة تعبير أكثر شمولية من مجرد كونه خطّة أمريكية للتفكيك الممنهج، وإليه تنتمي النزعة المركزية في حالة التثوير العربية لمسؤوليته (كمصطلح وخطّة) عن قوة الدفع الهائلة وحالة التعبئة التي حملت الشعوب على أن تقول كلمتها في التاريخ. كلّ ذلك جعل من الثورات المتعددة، وكأنها ثورة واحدة في مناطق مختلفة. ولعل ما عجزت فيه كلّ محاولات

توحيد الوطن العربي على أسس نخبوية وسلطوية، قد نجحت فيه الشعوب في إثبات أن هذه المنطقة كيان عضوي واحد، إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. النزعة المركزية بادية كذلك في مركزية الكيان والوجدان الذي انتفض ليثور في وجه الظلم والطغيان والجبروت الأعمى، فالحدث التاريخي، على اتساعه وفاعليته، تلخصه «النزعة المركزية للفوضى الخلاقة».

من المستغرب في هذه الدراسة أن الفوضى الخلاقة قد شهدت تطوراً بتطور منهجية الدراسة ذاتها، ففي حين قدمت النزعة المركزية الأمريكية: «الماهية والمفهوم، والخطط والمشروعات»، فإن السلطات الحاكمة قد عمدت إلى تبرير الفوضى التي انتظمتها، ما سمح لهيكلية مضادة لأن تختمر وتنفجر ثورياً، ثم أخذت الشعوب زمام المبادرة في التعبئة العامة (إلكترونياً)، وخروج الناس في حشود متراصة لترتسم مشاهد الفوضى في كل أنحاء الوطن العربي في إصرار غير مسبوق على تخليق واقع أفضل، وإعادة اكتشاف الحياة، وبناء عالم له معنى، وذلك وفق المحاور التالية:

أولاً: النزعة المركزية للفوضى الأمريكية الخلاقة

منذ عقد من الزمان، وفي عام ٢٠٠١، حدثت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وبعدها اعتزمت الولايات المتحدة العدوان على الوطن العربي والإسلامي في سلسلة حروب انتقامية بدأت في أفغانستان، ثم العراق، وأوكلت لإسرائيل مهمة الاعتداء على جنوب لبنان في عام ٢٠٠٦، تحت غطاء أخلاقي يهدف إلى محاربة الإرهاب ومحور الشر، ونشر الديمقراطية، وإسقاط الدكتاتوريات الدينية والسياسية في المنطقة. ثم اتجهت الإدارات الأمريكية المختلفة إلى ضرورة تحسين صورة بلدها، والتحول من دولة غازية إمبريالية إلى الدولة التي ترعى الحوار بين الفرقاء، لا للتوفيق بينهم، وإنما بقصد توجيهه والتحكم في إيقاعه، وإدارة الصراع وفق آليات جديدة للتفكيك عن بعد^(١). هذه الأحداث كانت بمثابة الطرق العنيف على القشرة الخارجية لأنظمة الاستبداد، ولم يبق على الشعوب إلا أن تصل إلى

(١) إن استراتيجية «الفوضى الخلاقة» المنسوبة إلى وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس منذ عام ٢٠٠٥ تتفق ومقولات إنسانية براقية مثل: «الدورة الحضارية عند ابن خلدون وهيجل»، و«الجديد على أنقاض القديم عند نيتشه»، وقول الشاعر: «اللهم خراب بالحق بناء بالحق»، وهي أيضاً العقيدة الاستعمارية البريطانية العتيقة «فرّق تسد»؛ فرّق وتعني الفوضى، و«تسد» أي البناء الكولونيالي. لكن أمريكا تعمد إلى تفريغ هذه المقولات من مضامينها، وتعيد شحنها بخطط وسياسات، كما ورثت «الفوضى البناء» مقولة «الرجل المريض» التي أطلقت على الدولة العثمانية بغية تفكيكها. ومن هذا الزخم استقى ناتان شارانسكي، اليهودي السوفياتي الذي لجأ إلى إسرائيل، وعمل في الحكومة الأمريكية، في كتابه **القضية في الشرق الأوسط**، وتبنى مبدأ الهدم للوطن العربي الذي لا يراه إلا أقليات دينية وعرقية متناحرة. وقد ذهب الرئيس بوش إلى أن هذا الكتاب ما هو إلا جوهر السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. انظر: رفيق عبد السلام، **الولايات المتحدة الأمريكية بين القوة الصلبة والقوة الناعمة**، أوراق الجزيرة: ٦ (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠٠٨)، ص ٧٤.

اللباب، وأن مشهد هروب الرئيس العراقي السابق صدام حسين من مكان إلى آخر، ثم إعدامه، قد جعل من سقوط الطغاة أمراً ممكناً، حيث انزلق الوطن العربي إلى هوة سحيقة من الجدل حول طبيعة التغيير القادم، وهل يكون من الداخل أم من الخارج؟ وقد رأت الشعوب بألم عينيها النموذجين العراقي والأفغاني، وما رافقهما من تدمير وحروب طائفية لا تنتهي، ومع تطور آليات الثقافة المعولة، وبعد مفاوضات وحوارات مضيئة للمفاضلة بين الخيارين، قرّرت الشعوب العربية أن تقول كلمتها في الأخير.

إن مصطلح «الفوضى الخلاقة» لا ينبغي أن يكون منفراً أو مرفوضاً من التداول المعرفي لمجرد أنه غربي المنشأ، وانعكاس لسياسات أمريكية عدوانية بغيضة، فكثيرة هي الأشياء التي تنتمي إلى حضارتهم، ومع ذلك نستخدمها ونتعاطى حيالها بدون عقد نفسيه أو حساسية مفرطة، فالثورة في حد ذاتها هي الممارسة العملية للفوضى الخلاقة، وهي الخروج الحتمي والضروري عن التقليد والاستقرار المذل. فعندما تخرج الجماهير بهذا القدر الهائل من الغضب ضد الطغيان، وتأخذ في طريقها كل ما له صلة بالاستبداد والدكتاتورية والظلم الاجتماعي، وتستهدفه بالهدم والإسقاط، لهُو فعل من أفعال الفوضى من أجل تخليق نظام أكثر عدلاً وحرية وديمقراطية، والثورة في كل الأحوال هي الانتفاضة العارمة، أي من الفوضى الكاسحة. ومن ثم، فإن النزعة المركزية للفوضى الأمريكية الخلاقة، إنما تسير في اتجاهين على النحو التالي:

١ - ماهية النزعة المركزية للفوضى

تعني محاولات الاستمرار في السيطرة على المبادرات التي تحرّك العمليات السياسية البنيوية المتوائمة مع الأهداف العليا لأمركة العالم، فإذا كانت البنى الإقليمية غير مهيأة للقيام بالوظيفة المطلوبة أمريكياً، يصبح إخراجها من دائرة الفعل بتدميرها، وإدخال مقدراتها في عمليات نزع مفتوحة بما يترتب على بثّ «الفوضى» من تفجيرات، خياراً بديلاً من الاستقرار الذي لا يتسق وديناميات الخطط المرسومة للجغرافيا السياسية العالمية^(٢).

لقد كان للولايات المتحدة الأمريكية دور استخباراتي كبير في هدم الاتحاد السوفياتي، وإدخاله في حالة فوضى، وتفكيك لعناصره المؤسسية ودويلاته التابعة. وقد بنت على أنقاض ذلك «النظام العالمي الجديد» الذي قوامه القطبية الأحادية (١٩٩١ - ١٩٩٤)، وتوسعت على أثره في تعميم تعبير «العولة»، فكرياً وممارسة (الليبرالية الجديدة - تحرير التجارة - تسهيل حركة رأس المال)، وفي حراسة آلات عسكرية ضخمة عبر الاحتلال ونشر القواعد في مناطق واسعة من العالم. وقد استمرت هذه الاستراتيجية طوال حقبة بيل كلنتون (١٩٩٣ -

(٢) لم تؤد الحروب الأمريكية إلى أي نوع من الديمقراطية، بل إنها على العكس من ذلك تقوّض الحريات المدنية، وتفرض حالة من الفوضى العبيثية والكارثية، انظر: Elizabeth Kier and Ronald R. Krebs, eds., *In War's Wake: International Conflict and the Fate of Liberal Democracy* (New York: Cambridge University Press, 2010), pp. 17-18.

(٢٠٠١)^(٣). ومنذ مجيء بوش الابن، توسّعت الولايات المتحدة في استخدام النظريات الفوضوية الهدّامة بدفع وتحريض من شركة هاليبرتون، والبنّتاغون، والمجمّع الصناعي - العسكري، مثل «الحرب على الإرهاب»، و«الحروب الاستباقية»، وتفعيل «نظرية الدومينو» التي تعني تدرج النظم الاستبدادية بعدما أعلن بوش أن «الاستقرار لم يعد يخدم المصالح الأمريكية»، وبالتالي جاءت نظرية «الفوضى البناءة» كحلّ أخير للتعامل مع هذه المنطقة، وتتكون عناصرها من: «تفكيك النظام الإقليمي العربي من خلال محاور مع أمريكا أو ضدها - وضع النظم في حالة قلق مستمر وتهديدها بالتغيير - إعادة صياغة النظم بحيث تقوم فيه أمريكا بدور الهدم (الفوضى)، ثمّ تتركها لصراعاتها الداخلية بحيث تكون الحاجة إلى التدخل والضبط الأمريكي ضرورة»^(٤).

إن الذي يجعل من عملية الإسناد والمتابعة (الإمبريالية) متحقّقة بنسبة كبيرة في كلّ هذا الفعل الثوري الإقليمي، هو أن الشبكة المعقّدة لخيوطها، التي تُسجّت بعناية فائقة، إنما تدور حول المراحل التالية:

أ - فشل آلية الحرب المباشرة على الطريقة الأفغانية والعراقية لأسباب ثلاثة، هي:

(١) أنّها باهظة التكاليف، حيث إنّ المجهود الحربي المبذول لا يتناسب مع الفوائد المتحصّلة، فضلاً على أنّها طويلة الأمد.

(٢) أنّها لا تحدث الأثر المطلوب من بعد إسقاط النظم، حيث الغياب المطلق لاستراتيجية البناء لما بعد الهدم.

(٣) أنّها تسيء إلى سمعة الولايات المتحدة عندما تتحول إلى شرطي العالم، الذي لا يتورّع عن القتل والتدمير للوصول إلى أهدافه (غير المشروعة).

ب - اللوبيات المعوملة التي تدفع باتجاه تآزيم مناطق الضعف من العالم عبر تنشيط قطاعات ثلاثة، هي:

(١) شركات السلاح التي تسهم بفاعلية في حملات الرئاسة الأمريكية والبرلمانات المختلفة، ولا تريد أن تجد نفسها بلا عمل.

(٢) شركات الأدوية، حيث تعمل آلياتها بكامل طاقاتها في حالات الحروب المنتشرة حول العالم.

(٣) عن الدور الإسرائيلي في استراتيجية «الفوضى الخلاقة»، انظر: Dan Flesher, *Transforming America's Israel Lobby: The Limits of its Power and the Potential for Change* (Washington, DC: Potomac Books, 2009), pp. 162-164.

(٤) عن التغيير في استراتيجية «الفوضى الخلاقة» بعد فشل النموذج العراقي، انظر: Kenneth M. Pollack, *Unfinished Business: An American Strategy for Iraq Moving Forward*, with Contributions from Joost Hiltermann (Washington, DC: Brookings Institution Press, 2011), pp. 17-21.

(٣) شركات الورق والمطبوعات والميديا، وهي آلة الدعاية الضخمة التي تقف وراء الأحداث حتّى نهايتها.

ج - الأهداف المأمولة من الانخراط في الثورات العربية على هذا النحو تسير في مسارات ثلاثة أيضاً، وهي:

(١) إعادة إنتاج الهيمنة بوسائل عولمية جديدة تتناسب وأساليب التحكم عن بعد، ومحاولة تحقيق جغرافيا سياسية أكثر قرباً من مشروع الشرق الأوسط الجديد.

(٢) السرقات المنظّمة للنفط، بحيث إنّ غياب المؤسسات يتيح للأنظمة المؤقتة القبول بالمساومات الضرورية لتأمين بقائها في السلطة.

(٣) ترسيخ المكانة الإقليمية لإسرائيل، والحدّ من كلفة الصراع عندما تواجه نظاماً عربية تعيش حالة فوضى. وتكون المحصله النهائية هي محاولة التنكيل بهذه المنطقة التي تجرأت على غزو العمق الأمريكي ومفاصله الحيوية، حيث رموز القوة الاقتصادية والعسكرية (برجا التجارة العالمية والبنتاغون) ودرس لكلّ من تسوّل له نفسه مقاومة نزعة الهيمنة الأمريكية.

على هذا النحو، فإن الفوضى على الطريقة الأمريكية ما هي إلا فتوى سياسية لمذبة مفتوحة، وهي مفهوم مستورد من فيزياء المقادير الكبيرة، فكلما كانت المقادير هائلة، كانت التفاعلات أعلى وأقرب إلى الانفجار، وهو اتّجاه تدميري يؤكّده مايكل ليدن، أحد أعلام المحافظين الجدد بقوله: «إن التدمير هو وصفتنا المركزية، وإن الوقت قد حان لكي يتم تصدير الثورة الاجتماعية»^(٥).

تركّز الفوضى الأمريكية الخلاقة على ما يسمّى بـ «ثورة الديمقراطيات»، بداية من الحقوق الأساسية في الحرية والعدالة والمساواة وحق تقرير المصير كقيم إنسانية عالمية لا تقتصر على شعب دون غيره، وصولاً إلى النظريات السياسية التي تطلقها النخبة الأمريكية، ويكون لها تأثيرها الفاعل في إحداث التغييرات الجذرية في الدول الساكنة والممسوكة أمنياً. وكان من بين هذه الأفكار على الإطلاق ما روّجته وزيرة الخارجية الأمريكية في مطلع الألفية الثالثة عن «الفوضى البناءة»، التي قصد بها «حينئذ» إحداث حالة من الفوضى الممنهجة لكسر الأنساق العتيقة القائمة وإسقاطها، ثمّ يذهب الجميع إلى صناديق الاقتراع والانتخابات للتعرف إلى الأوزان الحقيقية للقوى حتّى يمكن بناء الاستراتيجيات المستقبلية بناءً على هذه المستجدات^(٦).

(٥) ياسين الحاج صالح، «السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط من الاستقرار إلى الفوضى الخلاقة»،

حوار العرب (مؤسسة الفكر العربي)، السنة ١، العدد ١٢ (٢٠٠٥)، ص ٧٧.

(٦) هذه النظرية السياسية تأتي في إطار خيارات القوة العسكرية الأمريكية المحدودة في إدارة الأزمات،

انظر: Micah Zenko, *Between Threats and War: U.S. Discrete Military Operations in the Post-World* (Stanford, CA: Stanford Security Series, 2010), pp. 235- 238.

٢ - المشروعات الاستقطابية للفوضى الخلاقة

التركيبة المخزنية للفوضى يلزمها سلسلة مشروعات استقطابية تكون بمثابة الأعصاب الواصلة التي تغذي عقيدتها، وهي تخترق باسم العولة. والحرية المطلقة التي تدعو إليها في المعلومات والأموال والأفكار والسلع، يلزمها شبكة خدمات دولية تتصف بالحيوية والضرورية واللازمة، بما يتطلب نسقاً من العلاقات الدولية لا يفضي بالضرورة إلى الاستقرار والسلم العالمي، وإنما قد يؤدي في جوانب كبيرة منه إلى تأجيج الثورات والانفعالات، وحيثما تعتقد النظم السلطوية الاستبدادية أن الدعم الخارجي يمثل ضماناً لاستمرارها تكون هذه الضمانة سبباً في الانقراض عليها، وبالتالي فإن هذه الخدمات اللوجيستية تتوزع على النحو التالي:

أ - **الاستثمارات المشتركة:** وهي ما يُطلق عليها عمليات الاندماج لشركات محلية مع أخرى عالمية، واستحواذ الشركة الأم على الأفكار والسياسات، فالتشغيل، ومن ثمّ السيادة الاقتصادية المطلقة تحت زعم آليات السوق ومركزية الاقتصاد العالمي^(٧).

ب - **المقايضة الحمائية:** حيث إنّ الحماية التي توفرها الدول العظمى (أمريكا - بريطانيا - فرنسا) للنظم السلطوية في المنطقة العربية تتطلب الدأب على شراء صفقات الأسلحة والمعدات العسكرية من هذه الدول، تحت ضغط اللوبيات من أصحاب هذه المصانع الكبرى، مثلما كان يحدث في مصر، ولكن بطريقة عكسية، حيث إنّ المساعدات الاقتصادية تذهب في مجملها إلى الدعم الدفاعي وخضوع المنطقة بالكامل تحت الإدارة الكولونيالية الأجنبية، فضلاً على البؤر الاستيطانية (الاحتلالية) للقواعد العسكرية المنتشرة، وما تتطلبه من وجود خبراء وفنيين ومرافق حيوية تعيد العرب إلى الحالة الاستعمارية. وفي كلّ الأحوال يتم مصادرة القرار السيادي لهذه الدول حيال الأزمات الإقليمية^(٨).

ج - **المحاور المتضاربة:** تفرض السياسات الأمريكية نسقاً جديداً من الأحلاف الدولية، بعضها طائفي مثل: «المحور الشيعي»، و«المحور السنّي»، والآخر إمبريالي مثل «دول الاعتدال» و «دول التطرف»، والثالث ثأري وغير معلن، مثل تغذية التوتر الدائم في العلاقات المصرية - القطرية. وتتقاطع هذه المسارات في ما بينها، وتكون سبباً في حروب جزئية، أو تظاهرات وانتفاضات مناطقية ولوجيستية، لخدمة المرجعية الأساسية^(٩). فنجد أن إيران مثلاً

(٧) محمد السيد سعيد، **الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية**، عالم المعرفة: ١٠٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٦)، ص ٢١٩، وعبد الرزاق فارس الفارس، «العولة ودولة الرعاية في أقطار مجلس التعاون»، **المستقبل العربي**، السنة ٢٦، العدد ٣٠٢ (نيسان/أبريل ٢٠٠٤)، ص ٦٦.

(٨) Anthony H. Cordesman, *Trends in the Military Balance and Arms Sales in the Southern Gulf States after the Gulf War, 1990- 1993* (Washington, DC: Center for Strategic and International Studies (CSIS), 1993), pp. 16-18.

(٩) للتأثر في العلاقات الدولية أصول وقواعد وحكايات تروى، وللمزيد من التفاصيل عن هذا الملف، انظر: سامي ريفيل، **قطر وإسرائيل: ملف العلاقات السرية**، ترجمة محمد البحيري (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١١).

تلعب كيفما تشاء في المناطق الشيعية، وتمارس تخريباً ممنهجاً، وعندما تقوم بلدان الخليج بالدفاع عن مصالحها استباقاً للمخاطر، تنتفض طهران في تهديدات صارخة، ولا تتورّع عن التلويح بالحرب في سبيل الدفاع عن عقيدتها الأيديولوجية.

د - مشروع مارشال الخليج: تمتعض الولايات المتحدة من أيّ توجّهات أو تحركات تكون خارج سياقها، والسياس التي رسمته للمنطقة، حيث لجأت بلدان الخليج إلى تنفيذ مشروع مارشال خليجي لدعم كلّ من البحرين وعمان عندما أقرّ مجلس الوزراء الكويتي تقديم منحة إلى البحرين على دفعات، تقدر الدفعة الأولى منها بنحو ٤٠ مليون دينار بحريني، وكذلك السعودية والإمارات، بعد أن نجح أمير الكويت في رأب الصدع في العلاقات العمانية - الإماراتية التي شهدت توتراً شديداً على خلفية اتهام مسقط لأبوظبي بأنها تقف وراء أعمال تخريبية هناك^(١٠). وعندما لم تُجد سياسة «الجزرة»، استخدمت بلدان الخليج «العصا» بعد أن دخلت قوات برع الجزيرة البحرين، وساهمت في تفريق المتظاهرين في ميدان اللؤلؤة بالقوة. وذلك يؤكّد أن مجلس التعاون الخليجي تجمع سلطوي يستهدف بالأساس حماية النظم من السقوط. كلّ ذلك أثار حفيظة الأمريكيين، وأعلنت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون أن تدخّل السعودية في البحرين عمل خاطئ ومثير للفوضى الإقليمية^(١١).

ثانياً: الفوضى الخلّاقة على الطريقة السلطوية

عندما تعتمد الأنظمة الحاكمة إلى تنحيّة الدساتير والعبث بها، وإقصاء القوانين، وتعدّي على الحقوق الأساسية للشعوب، وتحترف كلّ أشكال التمييز والفساد، والانتقائية والعدوان على المال العام، وتمارس «البلطجة» والفوضى في الانتخابات البرلمانية، وتستبجح كلّ مقدّرات الدولة (نقط - غاز - أراض - أسلحة) وتبدو وكأنها في حالة حرب مستعرة وممنهجة ضدّ شعوبها؛ هذه الفوضى خلّاقة بالنسبة إليها، لأنها تؤمن لمصالحها الاستحواذ المتراكم من الثروة والسلطة، كمّاً وكيفاً، وبما يطيل أمد الاستبداد، ويعيد إنتاج نفسه في ديالكتيك من الدمج والنبد لا ينتهي إلا بالثورة عليه^(١٢).

١ - المبرّرات السلطوية للفوضى الخلّاقة

إن البلدان العربية تختلف من حيث قوة صمودها ومدى استجاباتها للثورة، وأساليب مقاومة السلطة، بحسب الطبيعة الديمغرافية، والبيئة السياسية الحاضنة لنظمها؛ فما يصحّ في

(١٠) «وكالات الأنباء: مشروع مارشال خليجي لدعم البحرين وعمان» المصري اليوم، ٢٠١١/٣/٤، ص ٦.

(١١) «وكالات الأنباء: الوضع الكارثي في البحرين، إخلاء دوائر اللؤلؤة بالقوة»، الشروق، ٢٠١١/٣/١٧، ص ٩.

(١٢) يربط العديد من الخبراء بين سقوط نظام مبارك في مصر ونهاية العصر الأمريكي في الشرق الأوسط، انظر: Jayshree Bajoria and Deborah Jerome, «Egypt's Post-Murbarak Path», Council on Foreign Relations (Analysis Brief) (11 February 2011).

مصر لا يصح بالضرورة في بلد آخر. ففي ليبيا تطلب الأمر الدخول في معارك دموية ومجازر لسببين: «الطبيعة القبلية، والتباعد الجغرافي»، وعدم وجود نظام أصلاً حتى يمكن إسقاطه، وإنما هو منظومة عشوائية ملتبسة ومتداخلة من الميليشيات العسكرية التي ترى أن النظام هو الدولة، وإذا لم تسقط العاصمة لا تسقط السلطة أبداً. وفي البحرين، فالطائفية سبب من أسباب الضعف والقوة في آن معاً، حيث إنَّ الخروج على الحاكم أو دعمه فعل يرتدّ إلى الفتوية. واليمن كذلك قد تمارس الحروب الأهلية وحركات الانفصال، وإن حدثت ثورة تستهدف إسقاط النظام، يقال عنها إنها عمل من أعمال الشغب والتمرد^(١٣).

بيد أن الثابت الوحيد الذي يحمل نزعة مركزية مؤكدة، كباعث رئيسي على كل هذه الثورات العربية، يكمن في موضوع «التوريث» الذي مثل حالة سعار عربية تملكت الحاكم ومن في معيته، حيث تقوم فلسفة الوراثة السياسية على أن الرعية (الشعب) ملك شخصي، وأن المواطن موظف لدى الوراث والوريث، ويؤخذ كما تؤخذ الغنائم والأسلاب، وأن الشعب لا يختار حاكمه أو حتى ينقده، ولا يجزئ على تغييره. ولأن التوريث قد صار مشروعاً، بحد ذاته، فقد جُمِدَ حياله تطور المجتمعات وتعطلت البنى المؤسساتية، وتم نسف مفهوم السلطة والدولة معاً، وجميع القواعد والنظريات السياسية المنهجية، وما يتطلبه ذلك من تعطيل وتخريب في النخبة المستنيرة، لجهة تصنيع نخبات ظلامية تقوم على أساس الولاء والجهل والقمع والطاعة العمياء، ومكافأة الأطوع بعضوية في المجالس النيابية أو بالتوزيع في الحكومة^(١٤). ومن ثمَّ تحول المؤسسات المعنية بالعلاقة بين الشعب والدولة إلى مؤسسات عائلية، والحاكم العربي الهرم يسعى إلى استنساخ نفسه بعد أن تمتلكه شهوة السلطة وملذاتها، ولستر عيوب تجربته، وللحيلولة دون محاسبتها على ما فعله ببلده وشعبه ومستقبلهما، تحت شعار تضليلي قوامه الاستقرار ومواصلة المسيرة^(١٥).

إزاء كل ما تقدّم، فإن البيئة الحاضنة للاستبداد التي تبرّر خروج الشعوب والانخراط في إدارة «الفوضى الخلاقة» على طريقتها، يمكن حصرها في عدة نقاط على النحو التالي:

أ - الدساتير يجب أن تكون تعاقدية وليست منحة، حتى ترسخ شرعية الحكم، وتغلق أبواب الفتن، وتوزّع السلطات وتوازنها، وتشرّع للقوانين التي تصدر باسمها، وتكفل الحرية والحقوق والواجبات.

(١٣) بارعة علم الدين، «البحرين والحوار الوطني: اليمن وليبيا وإيران على خطّ الانفجار»، الحياة، ٢٢ /

٢٠١١، ص ١.

(١٤) خليل أحمد خليل، التوريث السياسي في الأنظمة الجمهورية العربية المعاصرة (بيروت:

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١١)، ص ١٧.

(١٥) أصدرت لجنة تقصي الحقائق المصرية تقريرها النهائي عن «ثورة ٢٥ يناير» وملابساتها، والذي

جاء فيه أن الشعب المصري قد خرج بكل طوائفه ضد الطغيان، والفساد السياسي، وغياب العدالة وقمع الحريات، وتفشي الرشوة والمحسوبية، وسيطرة رأس المال على الحكم، والتضليل الإعلامي، للمزيد من التفاصيل، انظر:

«المشهد السياسي: التقرير النهائي للجنة تقصي الحقائق بشأن أحداث ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١»، الأهرام، ٢٠ /

٢٠١١، ص ٤.

ب - تغلغل النظم الحاكمة (العائلية - الحزبية) في جميع مفاصل الدولة، وقبضها على المناصب السيادية يحول دون الشعور العام بالعدالة والتكافؤ التمثيلي البيروقراطي.

ج - التجريف الممنهج للحياة السياسية، وعدم وجود مسارات حقيقية للديمقراطية، ما بقيت عملية تكوين الأحزاب مكموعة ومرفوضة من قبل السلطات.

د - الفروقات الواضحة في الدخل بين المواطنين، إذ تزداد اتساعاً مع ظاهرة الاستقطاب للثروات في عصر العولمة، ولا بُدَّ من البحث عن وسائل ومسارات لتفكيك السلطوية الاقتصادية والاجتماعية، جنباً إلى جنب مع الاتجاه نحو الديمقراطية السياسية.

هـ - غياب الضوابط الحاكمة للمراقبة والمحاسبة، والاعتماد على الإجراءات العادية يجعل هذه الدول لا تتمتع بالشفافية والمصادقية في الداخل والخارج، ومن ثمَّ لا بديل من الأجهزة الرقابية والقضاء المستقل كضرورة من ضرورات المدنية الحقّة.

و - الانصياع السلطوي لمقتضيات ما يمليه الغرب من استراتيجيات فوضوية تستهدف هدم الأنظمة والمجتمعات، بقصد إعادة صياغتها بما يتوافق ورؤيتها للجغرافيا السياسية الجديدة، والارتكاز على القمع كآلية وحيدة للتفاهم مع الشعوب، وأن العمل بقوانين الطوارئ التي تتيح البطش الأمني يغذي الاحتقان، ويبرّر ردّ الفعل الثورات العنيف^(١٦).

إن التوحّش الرأسمالي فعل من أفعال الفساد السلطوي غير المخبوء الذي يبرّر الفوضى، فالعولمة ترفع شعاراً ثورياً بامتياز عندما تؤكد أن: «الضحية تستحق مصيرها»، و«لينقذ نفسه من يستطيع»، كما لو أن الشعوب أشبه بـ «فيل ضخم»، وهي محشورة في النفق الضيق للدولة، وقد أشرفت سفينتها على الغرق، وأن الخطر الداهم يحتم على كلّ جماعة أن تتدبّر أمرها، وأن منطق «القوة للحق» قد تحوّل إلى «الحق للقوة». والنيوليبرالية الجديدة التي هي لُحمة العولمة وسداها تعظّم الفردية على حساب الجماعية، والحيلولة دون قتل المبادرات الشخصية، عملاً بصيحة آدم سميث «دعة يعمل - دعة يمرّ». وإن كفّ يد الدولة عن الاقتصاد، وحصر دورها في مجرد حماية مصالح القلّة، رغماً عن أنها أطر ونظريات، قد تسبّبت في الانفجار الكبير في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨^(١٧)، في أعقاب إفلاس بنك ليمان براذرز الأمريكي، الذي كان بمثابة فوهة البركان الذي انطلقت منه الانهيارات الاقتصادية المتتالية في

(١٦) إن مشكلة التحالفات والسلطوية مع الغرب وأمريكا على نحو خاص قد أثارت جدلاً موسعاً وتناقضاً ملحوظاً، فأمريكا تشرعن لنفسها دخول ليبيا على رأس قوات دولية بموجب القرار الصادر من مجلس الأمن في ١٨ آذار/مارس ٢٠١١، وتنتقد بلدان الخليج عندما دخلت البحرين، كما إن دول الخليج التي دخلت البحرين لقمع المتظاهرين ودعم النظام، هي ذاتها التي اشتركت في القوات الدولية للوقوف في صف المتظاهرين ضدّ النظام في ليبيا. إن سلسلة الأخطاء المتكررة قد وضعت المصالح الأمريكية في المنطقة العربية على فوهة بركان، انظر: Chas W. Freeman, Jr., *America's Misadventures in the Middle East*, foreword by William B. Quandt (Charlottesville, VA: Just World Books, 2010), and Pollack [et al.], *Unfinished Business: An American Strategy for Iraq Moving Forward*.

(١٧) محمد عبد الشفيق عيسى، «الخليج والاقتصاد السياسي للاستثمارات الأجنبية»، *السياسة الدولية*، السنة ٤٤، العدد ١٧١ (كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨)، ص ٣٨.

العالم، إلا أن الرأسماليين لم يعيدوا النظر في سياساتهم، وإنما شرعوا في خطط التكيف وإعادة الهيكلة للمؤسسات الاقتصادية في بلادهم، بحسب ما أشار إليه صندوق النقد والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، لا بغرض تصحيح الأوضاع وتهدة الثورة الاقتصادية الهائلة ضدّ الجشع والتوحش الرأسمالي، وإنما بقصد إعادة إنتاج الفساد. والاستحواذ المتراكم بطرق بديلة يلزمه وفق آليات العولمة: «الإعلام بوسائله المختلفة للترويج السلعي وغسيل السمعة، والأمن الذي يوفر المعلومة (المخابرات) والقوة (قمع المعارضات)، والبحوث التي تستطلع الرأي، وتتحكّم في توجيه الوعي العام»؛ حدث ذلك كلّ في مصر والبلدان العربية على مدار عقد من الزمان، حيث طغى على سطح المجتمع هناك مجموعة من رجال الأعمال الذين سطوا على مقدّرات البلاد بالقوانين والأوراق الرسمية، والاحتكار للصناعات الحيوية في أكبر عمليات لممارسة الاحتيال الذي يبدو في ظاهره أنّه بريء^(١٨). وكان كلّ ذلك يجري على مرمى ومسمع من الناس، ويكرّس من الاحتقان والتعبئة ضدّ الطغمة الفاسدة من رجال النظام البائد، حتّى إذا ما انفجرت الثورة في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، انفجر المجتمع برمته ضدّ هذا التوحش الرأسمالي الذي بدا وكأنّه بلا نهاية.

٢ - هيراركية الفوضى وثورية الانفجار

إن فترة الاختمار الثوري في مصر، على سبيل المثال، التي هي بمثابة الجذور التاريخية الحقيقية ليوم ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ تمتد إلى عقد كامل من الزمان قبل هذا التاريخ، عندما تأكّد المصريون أن فترة حكم الرئيس قد طالّت أكثر ممّا ينبغي، وأنها مرشحة لأن تأخذ منحى عائلياً يتم فيه تجهيز ابنه ليرث الحكم في أكبر إقطاعية عربية (دولة)، وما رافق ذلك من تكشير النخبة الحاكمة عن أئبياتها واستعدادها لاستخدام القوة المفرطة إذا لزمّت الضرورة لتنفيذ مثل هذا السيناريو. لم يمنع كلّ ذلك خروج الناس ورغبتهم في إعادة إنتاج البدائل التي تحرّك هذا الماء الراكد الآسن^(١٩)، وفي خلال هذه الفترة سارت الاحتجاجات المصرية في موجات متصاعدة في اتجاهات ثلاثة على النحو التالي:

أ - **الاحتجاجات السياسية:** وقد حمل لواءها تيارات ليبرالية تمثلت في حركة «كفاية»، وجريدة **البديل** للمفكر محمد السيد سعيد، وصحيفة **المصري اليوم**، ومثابرة عبد الحليم قنديل الذي قدح زناد فكره بألسنة حداد على النظام، والذي اختطفه النظام وألقى به على قارعة الطريق ليلاً في حماقة حرّكت الضمير والوجدان المصري حيال وِغادة النظام، وصحيفة **الدستور** التي تمثلت في مناوشات الصحافي إبراهيم عيسى الذي تجرّأ على مقام الرئاسة بمقالته الشهيرة «الآلهة لا تمرض»، متهمّاً وساخراً من احتجاج الدولة الرسمي واعتراضها

(١٨) انظر مراجعة سمير كرم لكتاب: جون كينيث غالبريث، «اقتصاديات الاحتيال البريء: حقيقة لزماننا»،

المستقبل العربي، السنة ٢٧، العدد ٣١٤ (نيسان/أبريل ٢٠٠٥)، ص ١٦٩.

(١٩) زياد حافظ، «ثورة يناير في مصر: تساؤلات الحاضر والمستقبل»، **المستقبل العربي**، السنة ٣٣،

العدد ٣٨٥ (آذار/مارس ٢٠١١)، ص ٦٨.

على كونه يتساءل عن صحّة الرئيس^(٢٠). وقد أتى في ذروة سنام الكفاح السياسي عودة محمّد البرادعي، الرئيس السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية، واندماجه في الجمعية الوطنية للتغيير، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تخرج فيها شخصية بهذا الوزن عن النظام، وتحدّى إرادته في البقاء، مطالبة بالتغيير الفوري، وكان لافتاً إصرارها على حمل المسألة المصرية إلى محافل دولية عديدة. فالعالم كان مهتماً بمعرفة ماذا يفعل؟، وبِمَ يفكر الرئيس السابق للوكالة الذرية، ويعتبره البعض لذلك ملهماً سياسياً للثورة، بالإضافة إلى الأنشطة الحقوقية وغيرها. هذا فضلاً على الجهود الدؤوب لجماعة الإخوان المسلمين الذين تتلمّكهم مازوشية سياسية تتأرجح ما بين التوافق والاستعلاء والغطرسة، فبعد أن خشوا أن يفتك بهم النظام دقوا أوتادهم في ميدان التحرير، وفي بنية التغيير^(٢١).

ب - الاحتجاجات الاجتماعية: إن تحريك هذا الثبات قد شجّع الجماعات الفتوية على التعبير عن مطالبها مع تنامي عمليات الخصخصة (العنوان العلمي للفساد) وبيع القطاع العام، التي ألقت بآلاف العمّال على قارعة الطريق بلا حلّ، وبدأت الدولة عاجزة أمام هذا التعسف والعسف الذي يجتاح قطاعات عريضة من المجتمع عندما تدرجت كرة الثلج من الاعتصام إلى التظاهر، ثمّ التجمهر، وصولاً إلى الإضراب الكلي، ومن مصانع الغزل والنسيج في مدينة المحلة إلى موظفين ومهنيين وأساتذة جامعات وقضاة، حيث أدت المعالجة الأمنية دوراً كبيراً في زيادة الاحتقان وتصعيد التصميم، ولا سيّما عندما تطاول رجال الشرطة على أهل القضاء وتعدّوا عليهم بالضرب والإهانات البالغة.

ج - النضال الإلكتروني: فرضت العولمة نمط الثقافة التواصلية، كالشبكة العنكبوتية، والفايس بوك، والتويتر، التي تؤدي دوراً مركزياً في التعبئة والتنظيم وتدجين الخطاب الثوري بالأسباب والمبررات والأساليب والأهداف. ولأنّ الزبونية تؤدي دوراً جوهرياً في علم السياسة، كان طبيعياً أن تسهم المجموعات الشبابية في عمليات النضال الإلكتروني بالنصيب الأوفر من خلال مجموعة «كلنا خالد سعيد»، و«شباب ٦ أبريل»، و«شباب حزب الجبهة»، و«شباب الوطنية للتغيير»، ومن انضم إليهم بعد ذلك من تجمّعات سياسية أو «الداخلين الجدد إلى الثورة» من الفئات والشرائح المختلفة.

وبالتالي، فإن التأثير الثوري المصري العنيف، لا ريب في قدرته العميقة والهائلة على إحداث فوضى عارمة في المجال السياسي للمنطقة العربية على مستويين:

(١) **مستوى السلطة الحاكمة** وجهازها البيروقراطي، حيث يثور الاختلاف على أشده بين تيار أول يتبنّى التغيير الفوري والبنوي والحاسم، درءاً للمخاطر، واستباقاً لهبة الشعب،

(٢٠) عن أدبيات المقاومة السلمية غير العنيفة، انظر: Gene Sharp, *The Politics of Nonviolent Action*, with the Editorial Assistance of Marina Finkelstein, Extending Horizons Books (Boston, MA: Porter Sergeant Publishers, 1984-2005).

(٢١) كريستوفر كولويل، «مصر توقظ ديكتاتوراً مكروهاً من حلمه»، **الشروق**، ٢٣/٢/٢٠١١، ص ١٢، عمّار علي حسن، «الإخوان المسلمون وغزوة أحد»، **المصري اليوم**، ٥/٤/٢٠١١، ص ١٧.

وتيار ثانٍ يحصره في مجرد الإصلاح الشكلي مع بعض المنح والأعطيات، وتيار ثالث ما يزال يعيش في الماضي، ويرى أن الطبائع مختلفة، وما يجري في مصر لا يمكن تعميمه، وبالتالي لا حاجة من الأساس إلى أي شيء.

(٢) **المستوى الشعبي** وتتجاذبه أشواق الفوضى بين ثلاثة تيارات: التيار الأول هو البعض النخبوي الذي تحصّل على مكتسبات مادية ومعنوية في ظلّ الاستبداد، ولا يرى في التغيير ضرورة، وهو يهدد الاستقرار القائم، ويدافع بقوة عن تطوره المتراكم؛ والتيار الثاني هو التيار الموازن، وتمثله جماعات الطبقة الوسطى، وهو يدافع عن مشروعية مطالبه في الحرية والعدالة والحقوق الإنسانية، وحتمية تغيير جوهر النظم في زمن تثور فيه الشعوب لكرامتها؛ والتيار الثالث هو التيار التحتي، وهم الفئة العريضة من الناس التي تعرّضت للافتقار الممنهج، وهي ترى الفساد الديناصورى من حولها يزحف على الأخضر واليابس، وهم في الحقيقة وقود المعركة وحطب الثورة الذين يندفعون من دون أدلجة، دفاعاً عن حقهم في الحياة. هذا هو فعل الفوضى الخلاقة من دون تردد.

ثالثاً: ثورة الاتّصالات والفوضى الشعبية الخلاقة

هنا تكمن آفة الثورة التي لا تهدأ للبناء، وهذه يسمونها بـ «ثورة التطلّعات المتزايدة» أو «الانتهازية السياسية» عندما تخرج الجماعات الوظيفية في شكل تظاهرات وإضرابات لتحقيق المطالب الاجتماعية والفئوية، وهؤلاء بدورهم يرون أن فوضويتهم خلاقة ومبرّرة لتحسين أوضاعهم، ولا يطالبون فقط بأشياء مادية، وإنما تتعدّاهم إلى تعديل القوانين، وإعادة الهيكلة الإدارية، وإقصاء رموز الفساد. وكانت الإدارة الإلكترونية في كلّ هذا الحراك المجتمعي حاضرة بقوة لحشد الطاقات، وتوحيد الجهود، وتحديد الهدف، وكانت مراحل التعبئة في فترة الاختمار الثوري ترتب للتطور المتراكم، فكلما زادت السلطة في استبدادها، تراكمت وتضخّمت أسباب الانفجار والثورة على النحو التالي:

١ - إلكترونية الفوضى والتعبئة الشبكية

إن فترة الاختمار الثوري، التي هي في حقيقتها بمثابة إعلان حرب متدرّجة وصاعدة على حالة الفوضى والعبثية التي فرضتها قوى الطغيان في الداخل، تطرح تساؤلاً جوهرياً: كيف يمكن صناعة ثورة في مجتمع يضجّ بالاستبداد والمراقبة الأمنية الصارمة؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل تستوجب المعرفة بديناميات الثورة من الوجهة الإلكترونية الفنية الدقيقة(*)،

(*) إلكترونية الفوضى، مصطلح يستمد شرعيته من انتماء علمي تكنولوجي يشير إلى ما يعرف بـ «أنشطة الفوضى النظامية» وفق نظم الإدارة على شبكة الإنترنت التي تدمج الفوضى والنظام معاً، وهو تعبير صكه دي هوك (Dee Hock)، مؤسس شركة بطاقات الاعتماد «فيزا» ومديرها التنفيذي السابق. وكثيراً ما يوصف نظام يدمج الفوضى بالنظام على أنّه التعايش المتناغم، الذي يظهر سمات من الاثنين من دون هيمنة أيّ منهما على النظام. للمزيد من التفاصيل، انظر: أنطوان زحلان: «العلم والسيادة: الآفاق والتوقعات في البلدان العربية: العلم والجامعات ومؤسسات الأعمال»، **المستقبل العربي**، السنة ٣٣، العدد ٣٨٦ (نيسان/أبريل ٢٠١١)، ص ٢٩.

حيث يعمل الـ «فيس بوك»، كما هو معروف، بفكرة التشبيك الأفقي بين ملايين البشر، كما يستطيع أي شخص إنشاء صفحة أو ملف شخصي، ثم يختار آخرين كأصدقاء، ومن ثم يتم تبادل الرسائل والمعلومات في ما بينهم من خلال الأدوات التالية: أداة الجدار أو اللوحة - أداة تحديد المناسبات - أداة الرسائل - أداة القضايا، ولكل منها وظيفتها التي تدرج من الحشد عن طريق المشاركات والمساهمات، إلى التنظيم النوعي، ثم الدعم اللوجستي، وإدارة الفعاليات الميدانية، وصولاً إلى تحديد القرارات والاتجاهات والخطط، أي مدى الاستجابة للتحديات. وإن ذلك كله يعمل وفق منظومة إلكترونية معقدة، تتحدد فيها معالم الفعل الثوري على النحو الذي يقسمها إلى مراحل:

أ - منطقة القلب النابض: وكانت مسؤولة عن الغالبية الساحقة من عمليات إنتاج المشاركات التي استخدمت في الدعوة إلى الاحتجاج والتظاهر، ثم المتابعة والتوجيه اللاحقين. وهنا برزت مجموعتان رئيسيتان، هما: مجموعة «كلنا خالد سعيد» بنسبة مشاركة ٧,٦ بالمئة، وتعليقات بنسبة ٧٩,٤ بالمئة؛ ومجموعة «شباب ٦ أبريل» بنسبة مشاركة ١٠,٦ بالمئة، وتعليقات بنسبة ٥,٨ بالمئة.

ب - منطقة الجسد: وتضم كل الأطياف السياسية والاجتماعية والعمرية، التي نهضت أيضاً بأعباء مكملة عندما تأججت الثورة، وانشغلت منطقة القلب بالاشتباك الميداني بعيداً عن الاتصال الشبكي.

ج - منطقة الأطراف: تضم المجموعات الفنية والتكنولوجية والمهنية التي شكلت المحيط الخارجي لدائرة عمل الثوار، والانتساع الذي يخفف الضغط عن منطقة القلب، ويشتت مجهود المواجهة لدى الطرف المناور. فالشباب هو قلب الثورة، والمجتمع هو جسدها.

وفي إطار ديناميكية الثورة، فإن التحليل المعلوماتي يذهب ليقسمها إلى موجات متعاقبة ومراحل متجددة على النحو التالي:

(١) التخطيط مقابل الاستهزاء: شملت الفترة ما بين ١٠ و ٢٥ كانون الثاني/يناير، حيث أدى الفيس بوك دور الحاضنة الرئيسية لفكرة الثورة والتخطيط لها، ووضع شعاراتها وأسلوب تنفيذها، والاستعداد لإطلاق شرارتها التي اقتصر في هذه المرحلة على الاحتجاجات والتظاهرات السلمية وتوقيات وأمكنة كل ذلك.

(٢) الغضب المسالم يواجه بلطجة الأمن: شملت الفترة ما بين ٢٥ و ٢٨ كانون الثاني/يناير، حيث إنَّ التدخل العنيف للشرطة ضدَّ المتظاهرين قد بلور الثبات على الموقف، وبث روح الشجاعة والتضحية تحت شعار صاغه الشباب هو «جمعة الغضب»، وتحديد ميدان التحرير كهدف للتجمع، بعد أن كُشِّرَت دولة الفساد والبلطجة عن أنيابها، وارتفعت نبرتها الحادة التي تمَّت مجابتهها بتكتيك «الغضب المسالم».

(٣) التركيز على الهدف يكافح بلطجة التفاوض: منذ مساء الجمعة في ٢٨ كانون الثاني/يناير أدخل النظام البائد إلى الساحة تكتيكاً جديداً من تكتيكات مواجهة الثورة، وهو تكتيك «البلطجة بالتفاوض السياسي»، وألقى بهذه المهمة إلى نائب الرئيس المعين حديثاً عمر

سليمان، ورئيس الوزراء المكلف أحمد شفيق، اللذين عمدا إلى المراوغة والتسويق حتى ٩ شباط/فبراير، وكاننا سبباً في العناد الذي وجّه الطاقات المجتمعية الثورية إلى إعادة التركيز على الهدف والتخطيط لما سميّ بـ «جمعة الرحيل» التي نفذت فعلياً في ٤ شباط/فبراير^(٢٢)

(٤) التحديّ يمهد للسقوط: تسرّب اليأس مع تحريك بعض النخبات التي تمسك العصي من المنتصف، وهم، لا هؤلاء ولا أولئك، لم يمنعوها الموجة الكاسحة التي أتت عكس التوقعات، حيث إنّ حملة التبشير بالنصر والدفع إلى الأمام، وفكرة جمعة التحديّ والزحف على القصر، وتحديد يومَي ١٠ و ١١ شباط/فبراير، قد أجهزتا على النظام المنهار المتداعي، ثمّ تمّ السقوط.

(٥) تكريس القطيعة مع النظام البائد: عمد رئيس الوزراء أحمد شفيق إلى الماطلة والتسويق بهدف التخفيف من حدة سقوط الرئيس، تصارعه مهمتان أخلاقيتان: الأولى التزامه مع الرئيس السابق بحمايته وعدم إهانته وأسرته، والثانية رغبته في التأكيد أنّه ليس من النظام، ويرغب في إعادة البناء بصدق ووطنية حقيقيين. لم يمنعوا كلّ ذلك من المطالبة برحيله حتى رحل، ومعه كرّست مصر الثورة قطيعتها مع النظام البائد.

(٦) الثورة المضادة تؤجج موجة التطهير: في استراحة المحارب للثوار الشرفاء، وبعد أن استجمع فلول النظام المخلوع شتات بعضهم، بدأت إرهابات الثورة المضادة بالاندلاع استباقاً للمحاسبة، وممارسة التخريب الممنهج في المشروع الاجتماعي الجديد، فعادت الجماهير إلى الميدان في «جمعة التطهير» في ٧ نيسان/أبريل ٢٠١١، التي على إثرها دخل رموز النظام السابق، الواحد تلو الآخر، السجون من دون مقاومة تذكر، وقد ذهبت عنهم كلّ مظاهر الكبرياء والغطرسة، ليتساءل الناس في انشداه: كيف حكمنا هؤلاء ثلاثين عاماً وهم بكلّ هذه الذلّة؟^(٢٣)

(٧) «المحاكمة»، أو الجيش في مواجهة الرئيس: لم يتعلّم الرئيس المخلوع الدرس، فالرجل الذي اعتاد تسليم أذنيه للآخرين لم يتعظ بدخول سدنته إلى الزنازين مكبلي الأصفاد، وكان زوجته تصرّ على تحطيمه حتى النهاية، فخرج على الناس بخطاب مزر يدّعي فيه أنّه لا يمتلك في الخارج أموالاً ولا أبناءه، وأنه لم يتربّع من وظيفته، بما وضع الجيش في حرج بالغ أمام الشعب: كيف بالرجل الذي يقيم رهن التحقيق يخترق هذا التقليد القانوني؟ فضلاً على صدمة الجماهير، وهي ترى من حكمهم أكثر من ربع قرن يتعمّد الكذب والتضليل، فأضاع نفسه معنوياً ورسمياً، وانهارت صورته تماماً في زوات جموع المصريين قاطبة، فكانت النهاية المأساوية بحبسه ونجليه هي الحبكة الدرامية التي تليق بـ «رجل لا يجيد سوى فن الغرق...!».

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن هذا التحليل المعلوماتي المهم، انظر: جمال محمد غيطاس وخالد الغمري، «الفيس بوك قلب الثورة النابض: سقوط دولة البلطجة والمراحل المختلفة للثورة» مجلة لغة العصر (مؤسسة الأهرام) (آذار/مارس ٢٠١١).

(٢٣) انظر: فهمي هويدي، «مواطنون عاديون جداً»، الشروق، ٢٠/٤/٢٠١١، ص ١٦.

الجدول الرقم (١)

الموجات الدينامية للثورة

(٢٥ كانون الثاني/يناير - ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠١١)

موجات الثورة	الموجة الأولى	الموجة الثانية	الموجة الثالثة
منطقة الجسد	الغضب المسالم يواجه بلطجة الأمن ٢٥ - ٢٨ كانون الثاني/يناير	التوثيق والتذكير يواجهان بلطجة الحزب الحاكم ٢٨ كانون الثاني/يناير - ٣ شباط/فبراير	الثورة المضادة تؤجج موجة التطهير ٢٥ شباط/فبراير - ٧ نيسان/أبريل
منطقة القلب النابض	التخطيط مقابل الاستهزاء ١٠ - ٢٥ كانون الثاني/يناير	التركيز على الهدف يكافح بلطجة التفويض ٢٨ كانون الثاني/يناير - ٤ شباط/فبراير	تكريس القطيعة مع النظام البائد ١٠ - ٢٥ شباط/فبراير
منطقة الأطراف	عدالة القضية تواجه بلطجة الإعلام الرسمي ٢١ كانون الثاني/يناير - ٣ شباط/فبراير	التحدّي يمهد للسقوط ٤ - ١٠ شباط/فبراير	(المحاكمة) الجيش في مواجهة الرئيس (الحبس) ٢٥ نيسان/أبريل

٢ - مشاهد الفوضى وسيناريوهات البناء

في أعقاب الثورة الأصلية تأتي الأوجاع الحقيقية، حيث يختلط الحابل بالنابل من جراء انطلاق طوفان الحرية بعد سنوات من القمع والكبت والقهر. وفي هذا الخضمّ العنيف يمكن رصد مجموعة من السياقات المنهجية التي تمثل التغذية المرتدة إلى المستقبل على النحو التالي:

أ - **تأثير الصورة:** الثورة المصرية في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ ثورة عولمية معلوماتية بامتياز، وهي من جنس الحداثة، وتنتمي إلى العالم الافتراضي، لا لانتمائها التكنولوجي والإلكتروني فحسب، وإنما لاستفادتها من رؤية المشاهد الحيّة والمباشرة للغزو الأمريكي للعراق منذ العام ٢٠٠٣، ودخول بلاد الرافدين في دوامة من العنف والعنف المضاد الذي لا تنتهي^(٢٤)، وما ترسّخ في الذهنية العربية من أن التغيير المدعوم من الخارج تكون خسائره لا حصر لها وباهظة التكاليف، وعلى الشعوب الحرّة ألا تنتظر أبداً تكرار النموذج العراقي، فضلاً على كونه مهيناً، ويعيد البلاد إلى عصور الاحتلال البغيضة. عليها إذاً أن تعتمد على ذاتها إذا ما أرادت تغييراً حقيقياً، مروراً بالتجربة التونسية التي أجبرت رئيسها على الهروب خلسة والناس نيام، وهو ما أجرى الدم في عروق المصريين وجعلهم يتساءلون في ما بينهم ... ولماذا لا نفعلها؟ وقد أتت إليهم البشائر عبر الوسائط الإلكترونية والفضائيات المختلفة، وصولاً إلى الـ «فيس بوك»، وحتى إذا ما اندلعت الثورة وقفت قناة «الجزيرة»

(٢٤) عن تجربة العراق المريعة، انظر: فتحي العفيفي، أمريكا في الخليج: سقوط الإقليمية والمستقبلات البديلة (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٥)، وAnthony Cordesman and Adam Mausner، «Iraqi Force Development»، (Centre for Strategic and International Studies (CSIS), 28 May 2008).

الفضائية القطرية بالمرصاد لكل محاولات السلطة الرسمية في مصر الهادفة إلى التعمية، وتصدير صورة إلى العالم غير واقعية عن أعداد المتظاهرين أو طبيعتهم. وكان مستهجناً أن الإعلام الرسمي المصري (صحافة وتلفزيون) قد عمد إلى تشويه الثورة، وأنها إنما تنفذ أجندات خارجية تتهم إيران وحماس وحزب الله وأمريكا وإسرائيل، برغم كل ما بين هؤلاء من تناقض ومصالح متعارضة. وحدها «الجزيرة» وقفت في صف الثوار مع بعض الصحف الخاصة، مثل جريدة الشروق المصرية، والحياة اللندنية، ولدى المصريين مقولة ذائعة الصيت تؤكد أنه «لولا كاميرات (الجزيرة) لأبدي ميدان التحرير عن آخره بمن فيه». فالثورة المصرية عولية المظهر والمخبر، ولأن مصر كلها كانت موضوعة تحت المجهر الدولي، فإنه كان من الصعب أن تغفل طغمة الاستبداد هذه المرة.

استفادت الثورة المصرية كذلك من عولمة الصورة والمشهد من زاويتين: الزاوية الأولى اجتذاب أعداد غفيرة من الداخلين الجدد إلى الثورة عبر الميادين المختلفة على خلفية الممارسات الأمنية الباطشة، ورؤية الشهداء يتساقطون الواحد تلو الآخر، فعمت التظاهرات أصقاع مصر المختلفة. والزاوية الثانية تشكيل رأي عام دولي ضاغط من خلال الوقفات المؤازرة في الخارج، دعماً للثوار في الداخل، وحثهم على مواصلة ما بدأوه، فضلاً على ضغط الميديا على الحكومات الأوروبية والأمريكية التي تابعت عن كثب بطريقة مراوغة، ثم تدخلت في الأخير لممارسة دور حقيقي لإجبار الرئيس المصري على ترك السلطة، حتى لا تبدو الولايات المتحدة، على نحو خاص، معارضة لحركات التحرر والديمقراطية وحقوق الإنسان، وأنها تدعم الدكتاتوريات إلى النهاية رغماً عن أن شعوبها قد لفظتها وألقت بها على قارعة الطريق^(٢٥).

ب - الثورة المضادة: ما إن فرغت الثورة من مرحلة الهدم حتى هبت عاصفة جديدة يطلق عليها «الثورة المضادة»، حيث تجمع بين «تحالف الخاسرين»، وجميعهم قوى فاعلة في النظام السابق، ويطلق عليهم «المثلث الشيطاني» بين ثلاث قوى:

(١) القوة الخشنة: تتألف من بقايا القبضة الأمنية الشريرة التي اعتادت البطش والثراء بطرق غير مشروعة، ولا تستطيع التكيف والتعايش مع الأوضاع الجديدة. وهذه القوة تقوم بالتحريض على ما تفهمه وتستطيع تنفيذه باحترافية شديدة، ويقودها قطاع «أمن الدولة»، ولا تتورع عن وضع قوائم للاغتيالات السياسية بين الطوائف الدينية المختلفة لتعم الفتنة والفوضى بما يسهم في إجهاد الثورة الأصلية.

(٢) القوة المادية: وهي مجموعة من رجال الأعمال الملاحقين بتهم الفساد، والذين يبذلون جهوداً مضمّنة للحفاظ على إمبراطورياتهم المالية، ويقومون بأعمال التمويل لكل عمليات البلطجة والتخريب الممنهج، وتعجيز الثورة الأم عن الانطلاق إلى البناء.

(٢٥) عن تراجع الإدارة الأمريكية عن دعم الديمقراطيات العربية، والاكتفاء في الحالة المصرية بدعم النظام الصديقة والمعتدلة قبل الثورة، انظر: Marina Ottaway, Hisham Melhem, Jackson Diehl, «Democracy Promotion in the Middle East: Restoring Credibility», Policy Brief (Carnegie Endowment for International Peace), no. 60 (June 2008), pp. 16-23.

(٣) **القوة الناعمة:** وهي من سياسيي ومفكرى الحكم المنهار، ونخبه الذين يديرون معركتهم بهدف الإجهاض بعد الإجهاد والتعجز، عن طريق ضرب الكتلة الفعالة في الثورة الأم من سياسيين ومفكرين أيضاً، والتشكيك في مصداقيتهم من خلال السخرية والاستهزاء والتهكم، وهو ما يطلق عليه «الاغتيال المعنوي المنهج» عن طريق التشويه والعمليات القذرة، بما يؤثر في وضعية هؤلاء في ذهنية الكتلة غير الفعالة من الشعب والمؤيدين للثورة، وحملهم في النهاية على التخلي عنها. وهذا هو أكثر أنواع الفوضى فوضوية وكارثية، لكن الكتلة الصلبة الحيوية في الثورة الأم تقف لها بالمرصاد حكماً، ولا تمكنها أبداً من أهدافها^(٢٦).

ج - تحليل السيناريوهات: التي نعني بها المشاهد المعولة وانعكاساتها على تغير الأوضاع الجيو - استراتيجية، ترتباً على ما يتحقق بالتداعي من نجاح أو إخفاق للفوضى الخلاقة، التي تجتاح الشرق الأوسط، مثلما هو تسونامي اليابان الذي أخذ في طريقة كل شيء، وخلف ضحايا وكوارث حقيقية (طبيعية)، فيما فعل السياسة أيضاً يخلّف بدوره كوارث من صنع البشر، ذلك أن رؤية قوات «درع الجزيرة» وهي تتحرك من السعودية باتجاه البحرين، وعبور سفينتين إيرانيتين لقناة السويس باتجاه سورية في سابقة لم تحدث منذ ثلاثين عاماً، وعودة قوات الحلفاء لتجوب المجالات الجوية لبلاد الشرق تحت زعم عمليات «فجر الأوديسا» على ليبيا، وإسراع تركيا إلى محاولة ملء الفراغ الإقليمي الناجم عن غياب قوى فاعلة انكفأت نحو الداخل لسنوات قادمة للبناء الداخلي، وسقوط النظام الرسمي العربي بفعل الضربات العنيفة التي تعرّض لها من شعوبه، وانهيار الشرق الأوسط الجديد بطبعته الأمريكية التقليدية منذ عقود؛ كل ذلك وضعنا أمام شرق أوسط هجين يجمع بين ترسّبات وتراكمات الماضي والأمال والتطلعات المستقبلية. ولأن من الصعب سبر أغوار هذا الجديد الذي لم يولد بعد، فإن رؤية هذه المشاهد المعولة، وكيف أن السياسة تُسمع وتُرى لأول مرة على الهواء مباشرة، فإن التباسات التغيّرات الجيو- استراتيجية في الراهن يلخصها مشهذان متداخلان وملتبسان: الأول يتعلق بتعقيدات الأوضاع في منطقة الخليج العربي، والثاني يتمثل في عودة مقولة «إن الطغاة يجلبون الغزاة»، إلى ممارسة فعلها في المنطقة العربية بوجه عام.

(١) **مشهد الاشتباك الاستراتيجي الإيراني - السعودي في البحرين الذي ترسم رهانات سيناريوهات على النحو التالي:**

- إن الزلزال السياسي الذي ضرب العرب من المحيط إلى الخليج، وطوّق العربية السعودية تحديداً، قد أثر في توازن القوى والخريطة الجيو-سياسية بشكل كبير في الشرق الأوسط، وخلق فرصاً مؤاتية لإيران، وهي تحاول اقتناصها لكي تزيد من نفوذها في الخليج والشرق الأوسط بوجه عام.

(٢٦) طلال سلمان، «الشعوب تكتب تاريخها عن الثورة المضادة»، الشروق، ٢٣/٣/٢٠١١، ص ١٠.

- يعتمد التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي على ثلاث قوى إقليمية (السعودية - العراق - إيران)^(٣٧). هذا النظام الثلاثي قد أبقي الخليج متوازناً في القوة منذ انتهاء الاحتلال البريطاني في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، حتى إنَّ الحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) لم تتمكَّن من تغليب قوة على أخرى، إلا أنَّ خروج العراق من الثلاثية القطبية منذ سقوط دولة البعث في عام ٢٠٠٣، حوّل الخليج إلى قطبية ثنائية، وهو ما زاد من العبء الاستراتيجي على السعودية. لكن إيران اتجهت مرحلياً إلى مدِّ نفوذها خلال السنوات الماضية إلى العراق وسورية ولبنان، مستخدمة الطائفة الشيعية، ومستغلة الأوضاع الداخلية المضطربة، ومتذرعة بالوجود والنفوذ الأمريكيين في كلِّ من العراق ولبنان^(٣٨).

- إن تحليل السيناريوهات على هذا النحو لا يثبت إلا حقيقة مؤكدة، وهي أنَّ حصاد الفوضى الخلاقة هو المزيد من الفوضى الخلاقة، لتستمر المناورة واللهو مع التاريخ.

(٢) الطغاة يجلبون الغزاة: فالمشكلة الآن لم تعد قاصرة على الاشتباك الإقليمي الداخلي وإنما تكمن كذلك في هذه الثورة المضادة المصنَّعة أمريكياً، فمن عراق صدام حسين إلى ليبيا معمر القذافي، ويمن علي عبد الله صالح، وبحرين آل خليفة، تتكرر المسألة ذاتها أمام عيون الشعوب العربية، يستدعي الطغيان الوطني التدخل الأجنبي الأمريكي، ومن ضمنه الإسرائيلي، فيورثه حكم البلاد التي كان يسيطر عليها بالقمع، فتخسر الشعوب أوطانها، وتنهار الدولة، وتنتهي إلى صورة خلقها الأولى: قبائل وعشائر، وطوائف ومذاهب وعناصر متقاتلة في حمى الاستعمار الذي يستعيد اعتباره بوصفه في هذه اللحظة المنقذ والمجير. إن بعض الأنظمة العربية التي كانت رافضة للتدخل في العراق عام ٢٠٠٣، لم تعد موجودة في حالة ليبيا ٢٠١١، فالأساطيل الغربية تدكّ المطارات والقواعد العسكرية الليبية بحاملات الصواريخ الهائلة القدرة، وكأنَّ الأمر كلُّه مجرد عملية تأديبية للطاغية الذي سخر من تلك الأنظمة مراراً، وحقّر مؤتمرات قممها، وتأمّر على ملوك ورؤساء بعضها. كما أنَّ الإمارات وقطر تدخلتا في الحملة المسعورة مع دعم سعودي معنوي كبير، تحت زعم إغاثة الملهوف من الشعب الليبي على بناء ديمقراطية (كالتّي شيّدوها في إماراتهم المذهبة!)^(٣٩).

أمام محكمة جنايات القاهرة في ٦ آذار/ مارس ٢٠١١ استمع الحضور إلى المرافعة، من خلال رئيس نيابة الأموال العامة محمّد النجار، ممثلاً للدّعاء الذي برع في نحت عبارات بليغة مسّت شغاف القلوب، وخاطبت الوجدان المصري، لكونها قد نجحت في إصابة الهدف والمغزى من محاكمة عصر بأكمله عاث في الأرض فساداً وإفساداً: «إن مصر حكمتها مجموعة من المماليك والشياطين وخونة العهد واللصوص، وكان التاريخ يعيد نفسه، فأقرز هذا الزمن

(٣٧) فتحي العفيفي، التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي خلال عقد التسعينيات، سلسلة محاضرات الإمارات؛ ٦٦ (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٤).

(٣٨) طراد بن سعيد العمري، «البحرين عقدة الخليج العربي»، الحياة، ١٩/٣/٢٠١١، ص ١١.

(٣٩) طلال سلمان، «الهجوم المضاد على الميدان: الطغيان ينتهي حليفاً للهيمنة الأجنبية»، الشروق، ٣٠/٣/٢٠١١، ص ١٠.

«الطبال» الذي يتولى منظومة العمل السياسي في مصر، والوزيرة الحاصلة على الإعدادية، ووزير النقل الحاصل على دبلوم نسيج، ووزير الإسكان غير المؤهل علمياً، فلك الله يا مصر، ولله الأمر من قبل ومن بعد»^(٣٠).

خاتمة

إن الفعل السياسي العنيف الذي يضرب بقوة على البنية التسلطية في المنطقة العربية لا يمكن إرجاعه برمته إلى عامل واحد، أو نسبته إلى جماعة سياسية دون غيرها، أو فترة تاريخية استثنائية بعينها. إنه متعدد العوامل والجماعات والأزمنة. وعلى وجه الخصوص، فإن الضغوط الخارجية المتعددة التي تلخصها استراتيجية الفوضى الخلاقة قد ساهمت في تحطيم القشرة الخارجية، وفضح ستر النظم الاستبدادية العربية، حتى إذا ما وصلت الشعوب إلى اللباب والبنية الصلبة للتسلط، احتاج الأمر إلى الطرق من كل اتجاه، وكافة التيارات، في فترة زمنية ليست باليسيرة، ترافقهما مجموعة من الخدمات اللوجيستية الحيوية واللازمة، التي بدونها لا يستقيم أبداً الكفاح بمراحله المختلفة، في حين ينتمي الفعل الخارجي والداخلي وما بينهما إلى جنس العولمة وإسهاماتها الخلاقة في الانتقال بالشعوب من حالة السكون والثبات إلى حالة الحركة والدينامية الفاعلة.

ومن ثمّ يمكن إجمال نتائج هذا البحث في ما يلي:

١ - إن الشعوب العربية قرّرت اعتماد آلية التغيير من الداخل، بعد رؤية مشاهد وتكاليف التدخلات الخارجية التي تعمد إلى تحطيم القيم الروحية الدينية والقومية، ونزع مناطق الحيوية والتأثير في هذه الدول المستباحة، تحت زعم التغيير.

٢ - إن التجاوب مع مساعي الفوضى الخلاقة لا يعني الإنذاع لنظرية المؤامرة، بقدر ما هو إعادة إنتاج لها، من أجل الخلاص من التهديدات الخارجية، فضلاً على دورها في لفت انتباه الشعوب إلى الفوضى الداخلية التي نظمتها الحكومات في خرافة اسمها الاستقرار.

٣ - إن النضال الإلكتروني والتعبئة عبر الشبكات هما من أهم مكتسبات الشعوب من العولمة، بعد أن عرفت الجماعة الوطنية كيف يمكن الانخراط في معطيات العصر والتفاعل مع مستجداته، بإيجابية وفاعلية، بعد سنوات من استخدام التكنولوجيا في مجرد ألعاب اللهو والتسلية.

٤ - إن التخطيط عنصر حيوي وجوهري لإنجاح كلّ حركات التحرر، شريطة استحواذه على التطور المتراكم، فالتغيير عملية معقدة ومركبة، وتحتاج إلى جهود مضمّنة.

(٣٠) «الطبال» هو أحمد عزّ، أمين التنظيم في الحزب الوطني المنحلّ، ووزيرة الإعدادية هي عائشة عبد الهادي، وزيرة القوى العاملة، ووزير النقل هو محمد إبراهيم منصور، ووزير الإسكان هو أحمد المغربي، هذا فضلاً على أنس الفقي، وزير الإعلام الأسبق الذي عمل راقصاً في فرقة رضا في بداية حياته، انظر: فاطمة أبو شنب، «عهد الممالك والشياطين: المحاكمة»، المصري اليوم، ٧/٣/٢٠٠٧، ص ٥.

٥ - إن الصورة عبر الشبكات العنكبوتية أو التلفزة تسهم بفاعلية في عقلنة التغيير وترشيده وتوجيهه والتحفيز له أيضاً، فالداخلون الجدد إلى الثورة من الأفراد والمجتمعات والدول هم ممّن تأثروا بالمشهد الذي ينتقل من مكان إلى آخر كمسرى النار في الهشيم، فضلاً على انضمام الضمير العالمي إلى تأييد كلّ مساعي التحرّر.

٦ - إن نجاح بعض الثورات العربية في إسقاط نظمها الحاكمة يتطلب عملية معقّدة من غسيل الوجدان للتخلّص من العفن السلطوي، بما يستلزم حركة واسعة في الوعي الجمعي عبر إحلال ثقافات جديدة وقيم أكثر حداثة تحتاج إلى عقود طويلة، صعوداً وهبوطاً، في دينامية للدمج والنبد يتسرّخ بفعالها المستقبل التاريخي □

الجدول الرقم (٢)

نموذج دينامي تجميحي لأليات عمل الفوضى الخلاقة

الفوضى الخلاقة	النزعة الأمريكية (٢٠٠٣ - ٢٠١١)	النزعة السلطوية (٢٠٠٣ - ٢٠١١)	النزعة الشعبوية (٢٠٠٥ - ٢٠١١)
ماهية الفوضى الخلاقة	- تدمير البنى الداخلية للدول. - مداخل إلى الحروب الإقليمية. - تغيير الجغرافيا السياسية.	- السلطة المطلقة مفسدة مطلقة. - التراكم الاستفزازي للثروة. - العبث بالدراسات والقوانين.	- هدم بالحق وبناء بالحق. - الانتهازية الفئوية السياسية. - إجهاد الثورة الأم لإجهادها.
مشروعات الفوضى الخلاقة	- غزو العراق عام ٢٠٠٣ وتقسيمه. - الإلحاق الاقتصادي (الخصخصة). - محاور أنظمة الاستبداد.	- تزوير كلّ الانتخابات. - السيطرة الأمنية القمعية. - تجريف الحياة السياسية.	- مقاومة استبداد الطغاة والغزاة. - إنهاء قمع المجتمع وإخضاعه. - حالة التنوير العامة.
مبَررات الفوضى الخلاقة	- إعادة إنتاج الهيمنة. - السرقات المنظمة للنفط. - ترسيخ مكانة إسرائيل.	- خرافة التنمية والاستقرار. - حماية الأمن القومي. - محاربة الإرهاب والتطرف.	- إسقاط دولة الدكتاتورية. - التحول الديمقراطي الحر. - صناعة المستقبل.
هيراركية الفوضى الخلاقة	- مراقبة الحريات والأقليات. - الرعزعة بالديمقراطية. - المشروعات الاستقطابية العنيفة.	- سلطة قمعية اختزالية. - إقصاء الأحزاب السياسية. - صعود برامج التوريث.	- النخبة العضوية المثقفة. - طليعة الشباب الليبرالي. - قطاعات الشعب المختلفة.
إلكترونية الفوضى الخلاقة	- تصدير الفوضى إلكترونياً. - موقع Freedom Home. - حوافز التواصل الإلكتروني.	- الاغتيال الإلكتروني للمواقع. - قنص الثورة إلكترونياً. - بثّ التضليل المضاد.	- مواقع النضال الإلكتروني. - التعبئة عبر الشبكات. - مواجهة المضاد الإلكتروني.
مشاهد الفوضى الخلاقة	- غزوة منهاتن ٢٠٠١. - الانخراط في الثورات العربية. - الاشتباك الجيو-ستراتيجي.	- رموز الاختمار الثوري. - الطغاة يجلبون الغزاة. - هروب الشرطة وفتح السجون.	- مركزية الميادين الحاشدة. - بلطجة الجمال والخيول. - تداعي سقوط الاستبداد. (الحاكمات)